

نمو المصالح الأوروبية في العراق:

لقد شهد القرن السابع عشر تزايد التنافس الأوربي حول العراق، وقد اندلع صراع محموم حوله بين البريطانيين والفرنسيين والهولنديين .

كان القرن السابع عشر الميلادي بداية فعلية لظهور المصالح الهولندي في العراق، اذ كانت شركة الهند الشرقية الهولندية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد واحدة من أكثر القوى الغربية اهمية في الخليج العربي، كما كان لها بعض المصالح التجارية مع البصرة. لقد ظهرت اول سفينة هولندية في البصرة عام ١٦٣٩ غير انها كانت سفينة مستأجرة من قبل شاه ايران، كما انها لم تقم ببعثة تجارية لشركة الهند الشرقية الهولندية، وظلت الحالة عدة سنوات الى ان بعث في نهاية الامر، مدير المنشآت أو المؤسسات التجارية الهولندية في الخليج العربي، ووليبراند جيلنسن دي يونغ عددا من السفن الى البصرة لاستقصاء الامكانيات التجارية، وقد سببت هذه البعثة الكبيرة نسبيا المؤلفة من ثلاث سفن نوعا من الهلع لدى لبريطانيين الذين كانوا حتى ذلك الوقت الوحيدين الذين يتاجرون في البصرة على مقياس محدود جدا. ولكن البعثة الهولندية انتهت بكارثة عندما دمرت النيران احدى السفن الهولندية، ففقدت على اثر ذلك جميع حمولتها، وبذلك فقد تردد الهولنديون لعدة سنوات في تكرار التجربة، وحتى حينما تكررت فإنها كانت بنسبة اصغر بكثير من الاولى. ومنذ عام ١٦٥١ فصاعدا كانت هناك حملات تجارية هولندية تجارية سنوية الى البصرة تحت اشراف ومسؤولية المدير في بندر عباس علما بان هناك بعض التوقفات أو المعوقات. وتمثل النشاط الرئيس للشركة في البصرة ببيع منتجات شرق وجنوب شرق اسيا من الهبات والسكر والانسجة القطنية الهندية، والقصدير والاواني الخزفية الصينية، كما جلبت في بعض الاحيان المنتجات الاوربية الى البصرة وبالأخص الانسجة الصوفية الهولندية، وكانت ارباح مثل هذه الحملات التجارية السنوية محدودة نسبيا في العادة.

في تسعينيات القرن السابع عشر تدهورت تجارة البصرة حتى وصلت اخيرا الى مرحلة التوقف، ويرجع ذلك الى الحروب التي سادت المنطقة، وقد تراجع الهولنديون اخيرا عن البصرة عندما صار الموقف في المنطقة سيئا جدا بحيث صارت فيه التجارة امرا غير ممكن تماما. ومع ذلك ظل الهولنديون يترقبون امكانية العودة ثانية الى البصرة، وقد اعاد الهولنديون فتح مؤسساتهم التجارية في البصرة حالما ظهرت المناسبة لذلك في اوائل القرن الثامن عشر. ولكن كانت الارباح في البداية ضئيلة ويرجع ذلك الى تعكرفصو التجارة بشكل

جدي نتيجة لاضطراب الاوضاع الداخلية، غير انها اخذت تتحسن ببطء، ومع ذلك فان هذا كان له اهمية كبيرة على اعتبار ان التجارة مع ايران قد تدهورت بشكل كبير ابان الفوضى السياسية المتنامية في ايران خلال السنوات الاخيرة لحكم الصفويين، وفيما بعد ابان فترة الحكم الاستبدادي لنادرشاه. وقد اسفر ذلك التدهور الى سيادة الفقريين الايرانيين وبالتالي ضعف التجارة.

لقد حرص الهولنديون في البصرة على المحافظة على الحياد بين السلطات العثمانية في المدينة وبين القبائل العربية. وقد سببت هذه الحالة بين الحين والآخر مشاكل مع العثمانيين الذين كانوا يهتمون في بعض الاحيان الهولنديين بالتعاون مع الثوار العرب. وقد تزايدت اهمية التجارة الهولندية مع البصرة، وتمثلت تلك الاهمية بالنسبة للهولنديين من اجل احراز تحقيق كامل الامتيازات التي منحها السلطان للأوروبيين منذ عام ١٦١٢ في البصرة. ولم يكن الحصول على ذلك بالأمر السهل وذلك لان متسلمي الجمارك سيحصلون على دخل اقل اذا ما دفع الهولنديون ٣% بدلا من ٥% غير انه بفضل الجهود التي بذلها السفير كورنيلس كالكوين في اسطنبول صار الوالي اخيرا راغبا في تطبيق جزء من الامتيازات فالضرائب انقصت الى ٤%، والواقع ان هذه لم تكن تشكل منفعة كبيرة، اذ انها ادت الى تدهور العلاقات مع السلطات العثمانية المحلية.

لقد واجه رضاء البصرة ومكانتها اضطرابا الى حد ما، فقد اعتمدت المدينة على ما يصل اليها سنويا من قوافل الزوارق المنحدرة اليها عن طريق انهار العراق، وكانت تلك السفن تحمل كميات كبيرة من الذهب والفضة والاموال لابتياح البضائع التجارية في البصرة، وكانت هذه التجارة محمولة بأيدي التجار الارمن واليونان والجورجيين. وقد تضرر هؤلاء كثيرا من المطالبات بالدفع غير النظامية المفروضة عليهم من قبل العثمانيين اصحاب المناصب الرفيعة. وكان التجار العرب والاييرانيين والاوربيون يبيعون منتجاتهم في البصرة، وكانت السلع المصدرة من البصرة لها منفعة محلية فقط.

كانت اثمان معظم السلع المستوردة تدفع نقدا، وفي بعض الاحيان يدفع اللؤلؤ مقابل اثمانها. ولقد ادى النزاع بين السلطات العثمانية والقبائل المحلية الى سد الطرق التجارية فتضرر لذلك التجار كثيرا وان لم يكونوا طرفا في هذا النزاع.

كانت اربعينيات القرن الثامن عشر واول الخمسينيات منها من الفترات التي ازدهرت فيها البصرة كثيرا، وفي الوقت الذي كانت فيه الامبراطورية الايرانية تتدهور، فان قسما من

تجارتها كان يسلك الطريق البحري عن طريق الخليج العربي بينما كان طريق القوافل يسير عبر العراق، ومؤشرا الى تنامي اهمية البصرة، مقابل تدهور اهمية بندر عباس، فان المقيم الهولندي في البصرة صار مستقلا عن الدائرة في بندر عباس وصار المقيمون الهولنديون في البصرة مسؤولين بشكل مباشر للحاكم العام للهند الشرقية الهولندية. غير ان الهولنديين لم يكونوا محظوظين تماما هناك، اذ ان العلاقات مع الموظفين العثمانيين كانت دائما صعبة. ووقعت الازمة حينما قاوم المقيم الهولندي تيدو فردريك فان نيهاوزن عام ١٧٥٣ المطالبات العثمانية الجديدة، وانتهت الازمة بغلق المقيمة الهولندية في البصرة. ومن الواضح ان رؤساء شركة الهند الشرقية لم يقصدوا ان تكون هذه الحالة نهائيا، اذ انهم عارضوا نيهاوزن عندما عرض مبنى الشركة الهولندية في البصرة للبيع. غير ان الشركة لم ترجع ايدا الى المدينة وان كانت هناك بعض المبادرات من جانب التجار المحليين أو من جانب الادارة العثمانية.